من التسامح إلى التفاهُم:
تحليل فينومينولوجي

حسن حنفي ■

التطـور سُنَّة الحياة، ليس فقـط التطور العضوي بـل أيضـاً التطـور الفكـري، ولا فرق بيـن تطور النبـوة والوحـي وتطور الفكر البشـري، فقد تطور الوحي من مرحلة إلى مرحلة، وتطورت النبوة من نبي إلى نبي، وتطـورت الإنسانية من الحس إلـى الذهن، ومن التجربة المباشرة إلى العقل الاستدلالي.

وتطور المفاهيـم من «التسامح» إلى «التفاهم» تطور طبيعـي؛ «التسامـح» طرق للبـاب، و«التفاهـم» دخول في المنزل، التسامح بداية، والتفاهم نهاية، التسامح وسيلة، والتفاهم غاية، التسامح إشارة أو علامة، والتفاهم معنى أو دلالة.

وتتطـور المفاهيـم بعد عدد من التجـارب، والتحقق من صدقها في الواقـع؛ فالمفهوم ليس مقولة مجردة بل

■ مفكر وباحث وأكاديمي من مصر.

نتج عـن احتياجات الواقع، ويتطور بتطورها، ولما كان الواقع متغيراً تغيّرت المفاهيم كذلك، فالواقع نسيج زماني، والمفهوم تجريد له، فالمفهوم مواكب للتجربة وإن بدا مستقلاً عنها، نتيجة منها وإن بدا مقدمة لها.

وبعـد عديد من التجارب والجـدل المتبادل بين المفهوم والتجربة، بين النظرية والواقع قد تحدث نقلة نوعية في المفاهيم بحدس مفاهيمي خاص، فالعلاقـة بيـن المفهوم والتجربة ليسـت علاقة آلية حتميـة؛ بل هي علاقة محكومـة بالرؤيـة أو بالحدس لكليهمـا: التجربة والمفهـوم، فالتجربة حس وإدراك ونظر، بداية وليست نهاية، والمفهوم تنظير لها دون أن يكون صورة مطابقـة منها. وهـذا هو الإبداع العلمي فـي شتى ميادين العلـوم الطبيعية والإنسانية بل والرياضية، بالرغم مما يبدو عليها من تجريد واستقلال ذاتي.

والمفهومـان «التسامح» و«التفاهم» لم يردا كلفظين موروثين في القرآن الكريـم ولا فـي السُّنَّـة النبوية؛ بل همـا لفظان وافدان مـن التراث الغربي الحديـث، نشأ كل منهما في ظـروف تاريخية خاصـة، فـ«التسامح» نشأ في وقـت الحـروب الدينيـة بيـن البروتستانـت والكاثوليك، كما عبّـر عن ذلك لـوك في «محاولة في التسامح» بعد مذبحـة سانت بارتليمي عام 1572 التي دبرها الكاثوليك للبروتستانت. و«التفاهم» ظهر بعد سيادة العقلانية الغربية وظهـور مقولات العقـل والفهم والذهن، وكلاهما مفهومـان مزدوجان يدلان علـى فعليـن متبادلين وليس فعـلاً واحداً من طرف واحـد، وهو الفرق بين «سامح» و«تسامح»، بين «فهم» و«تفاهم».

ومـع ذلـك فالمفهومـان كمعنيين وليـس كلفظين موجـودان في الكتاب والسُّنَّـة، ويعبر عنهما بألفـاظ أخرى مثل: العفو، الأخوة، الفضل، الإحسان، الحسنى، التعاون، الألفة، المحبة، الذمة، النصرة، الشورى، الجدال، الحوار، العـدل، القسط، الحديث، الحق، الحكم، الدعوة، الحكمة، الرأفة، الرحمة،

الشكر، الصفح، النصيحة، العهد، القربى، كلمة سواء، الأمانة، الصدق في مقابـل: الاختلاف، الشقاق، العـداوة، العدوان، الإخـراج، الظلم، الطغيان، الطاغـوت، نقض العهد، الغـرور، الغفلة، الخيانة، الكذب، الكيد، اللغو. وكل مفهوم يدل على أحد معاني التسامح أو التفاهم، وهناك مفاهيم أكثر دلالة مثـل العفو، والألفة والمحبـة على التسامح، والحوار والجـدل والشورى على التفاهـم، كما يظهر القرآن المفاهيـم النقيضة المقابلة للتسامح والتفاهم، فالسلب ضروري للإيجاب، والنفي خطوة نحو الإثبات.

ويتضمـن «التسامـح» اكتشـاف الآخـر، والخـروج عـن دائـرة الأنانيـة والنرجسية وحب الذات، وابتلاعها كل شيء خارجها، الآخر والعالم، الناس والكون؛ فالآخر هو صنو الذات، والواحد اثنان بعد أن خرج واحد آخر منه، آدم وحـواء. لذلك أصبحـت الإثنينية أو الثنوية مذهباً فلسفياً أو ديناً عقلياً لدى بعض الشعوب القديمة في مقابل الوحدانية.

التسامـح انفتاح الـذات على غيرهـا، واكتشاف قرينها الـذي ليس هو الشيطان بالضرورة، وتلك وظيفة الإيمان، فعلاقة المؤمن بالله تمثيل لعلاقة الـذات بالآخر، والأنـا بالغير، ليس الذات جوهراً مغلقـاً على ذاته وإلا كان فارغاً، فكل شعور هو شعور بشيء كما يقول الظاهراتيون (الفينومينولوجيون) والشيء آخر وليس بالضرورة الشيء الطبيعي.

ومن هنا أمكن الحوار؛ إذ يتطلب الحوار طرفين: الذات والآخر، وهو ما يعبـر عنه اللفظ اليوناني اللاتيني Dialogue Διάλογος، الخطاب المزدوج وليـس الحـوار مع الـذات، وهو ما يعبـر عنه اللفظ اللاتينـي Monologue، الحـوار مـع الـذات حوار مـع النفس أو حديـث النفس كما هـو الحال عند الصوفيـة ويسمـى مناجاة. فـي حين أن الحـوار مع الآخـر تفاهم، وعطاء وأخذ، وإرسال واستقبال.

وهنـا يتضمـن التسامح التفاهـم ويقوم عليـه، وإلا كان التسامح مجرد منـاورة وقتية لتخفيف العداء للآخر، وللتستر علـى صراع دفين بين ذاتين منغلقين، يرفض كل منهما الاعتراف بأن الذات الأخرى جزء منه، وأنه جزء منها كواجهتين لعملة واحـدة، التسامح ممارسة خارجية للتفاهم، والتفاهم تأصيل نظري للتسامح.

التسامح لـه شروطه ومقدماته قبل نتائجه وآثاره، فالتسامح مع النفس يسبق التسامح مع الآخر؛ فالتسامح قيمة ذاتية، ويقتضي التسامح مع النفس فهمهـا ومعرفة ضروراتها، وحسـن صحبتها، وعدم القسوة عليها، كما يفعل الزهـاد والعباد والمتصوفة باسم التقرب إلى الله، وكف النفس عن الهوى. وردع النفـس إنمـا هو فهم خاطئ لحديث «أعـدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك». لذلك كتب الفقهاء والصوفية عن «ذم الهوى»، والحقيقة أن النفس غيـر الهوى؛ فالأهواء أحد مكونات النفس وليست كل النفس؛ إذ أن بالنفس أيضـاً نوازع نحـو الخير والتسامح والمغفرة وتقديـر الظروف بل والتضحية بالذات في سبيل الغير.

ومـن شـروط التسامـح عـدم الأخـذ بالظنـون والشبهات ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، فالظـن شك، والشك يثير المخـاوف، ويصبح عائقاً للتسامح، وكيـف يعيش الإنسـان في عالم كله شبهات وظنون ومخـاوف دون أن يثق بأحـد؟. اليقيـن المطلق للذات مـع نفسها والظن المطلق مـع العالم يوقع الإنسـان فـي التصلـب والتعصب والتشنـج ورفض الحـوار أو التعـاون أو المشاركة مع الآخرين في أي شيء. فكيف يتعاون الحق مع الباطل، واليقين مع الظن، والخير مع الشر، والصواب مع الخطأ؟ إنهما ضدان لا يجتمعان؛ بل يتضادان، ومن ثم تصبح البنية النفسية للتسامح مفقودة؛ لأنه لا يوجد إلا طرف واحد على حق مطلق، أما الآخر فهو على باطل مطلق.

ولو نجح التسامح في الاعتراف بحق الآخر ـ مثل الاعتراف بحق الذات ـ فإنـه يظل محدوداً مرهوناً بآليات التسامح وكيفية تحقيقه؛ إذ تنشأ الدعوة إليـه في ظـروف خاصة عندما تحدث واقعة بين طرفيـن، وهما في الغالب طائفتان دينيتان أو قبيلتان عرقيتان أو قوميتان متجاورتان. وفي الغالب فإن واقعـة أليمـة تسيل فيها الدمـاء ـ مثل حادثة الإسكندريـة يوم عيد الميلاد وتفجيـر كنيسـة القديسين أو حادثة نجع حمـادي أو حادثة قطار الصعيد ـ تثيـر بكثرة الحديث عـن التسامح، ونقد التطرف والتعصـب، والتأكيد على وحدة عنصري الأمة، المسلمين والنصارى، والعيش المشترك بين المسلمين والنصـارى علـى مـدى التاريخ منذ انتشـار الإسلام، وحسـن استقباله من أقباط مصر، واشتراك كليهما في الثورات الوطنية، وحمل الهموم المشتركة في التنمية والتقدم.

ولا يتجـاوز الأمر بعد انتهاء الأزمة حدود الأقوال إلى الأفعال، ومظاهر الإعـلام الصوتـي والمرئي إلى تغيير الواقع الاجتماعـي الذي أدى إلى هذا العنف الطائفي، ويتحول التسامح إلى ظاهرة إعلامية لتحسين صورة الذات لـدى الآخـر في الإعلام المحلي أو العالمي، ويتقابل قادة كل من الطائفتين فـي الكنائس في الأعيـاد والمناسبات الرسمية، أو علـى موائد الإفطار في رمضان. ينجح التسامح عندما تتحقق شروطه، ويفضي على أسباب التعصب الدينـي والعرقي بالتآلـف الوطني، والنظر إلى المواطنة علـى أنها الأساس المشتـرك بين جميع المواطنين، ونظـرة الدولة للمواطنين جميعاً على قدم المساواة دون تمييز عرقي أو طائفي.

التسامـح مجرد نداء من القلب، وأمنية للـروح، وأمل للمجتمع، وهدف للدولـة، ولـن يتحقق دون تغييـر الوضع الاجتماعـي الذي أدى إلـى غيابه؛ لذلـك كثرت البيانات، وعُقدت المؤتمرات، وأُسست المجلات، وأُلّفت الكتب

عـن التسامـح وما زال التعصب قائماً، وما زال الصـراع الطائفي المذهبي والعرقي يهدد وحدة الأوطان، وما زالت مناهج التربية في المدارس وبرامج الفضائيات والثقافة الدينية المحافظة لم تتغير بالنسبة لعلاقة الأنا بالآخر؛ لذلك تقع الحوادث الطائفية بين الحين والآخر؛ لأن النبع لم يجف، والبنية التحتية لم تتغير.

وبالرغم من أن التسامح مفهوم عام، ليس له أي طابع ديني أو فلسفي، فإنه ـ تاريخياً وواقعياً ـ ما زال مرتبطاً بالصراع الطائفي وبالخلفية الدينية، مما يقلل من أثره وفاعليته في مجتمعات تريد أن تنتقل من مرحلة يسيطر فيهـا الدين على مظاهر الحياة الخاصـة والعامة، وتتجه نحو إقامة مجتمع مدني يقوم على فصل الدين عن الدولة، ومساواة جميع المواطنين في الحقوق والواجبات، بصرف النظـر عن دينهـم وعرقهـم، ومـا زال مرتبطاً ـ كمصطلـح ـ بالثقافـة الغربية دينيـاً وفلسفياً؛ لذلك يقل أثره في استخدامه، وتضعف فاعليته. والظروف التي نشأ فيها في الغرب ـ الحروب بين الطوائـف المسيحية ـ ليست هي الظروف نفسها التـي يعيشها الوطن العربي والعالم الإسلامـي؛ حيث لم تحدث مذابح بين الفـرق الإسلاميـة كما حدث في الغرب، وما يقع حاليـاً بين السُّنَّة والشيعة فـي العراق مـن تفجيرات محدودة له أهداف سياسية أكثر منها دينية، وما يحدث في اليمن الآن أو الصومال أو السودان صراع سياسي.

يتحول التسامح إلى ظاهرة إعلامية لتحسين صورة الذات لدى الآخر في الإعلام المحلي أو العالمي

وهذا الصراع السياسي لا يحل بالتسامح؛ بل بالتغيير السياسي، التحول من الطائفية إلى المواطنة، ومن القبيلة إلى الدولة، ومن العرقية إلى حقوق الإنسـان، فلا يجدي حوار بين طرفيـن لا يغير كل طرف موقفه من الآخر،

ويظل ثابتاً عليها، حينئذٍ يكون الحوار مجرد ملء فراغ، وحل وقتي للتخفيف مـن أثـر العنف الذي يمارسه كل طرف ضد الآخـر. هنا فرق بين المسكّن والـدواء، بين الدواء والشفـاء. حينما نحقق شروط العيش المشترك، وحين يمكـن تأسيـس التعددية بكل مظاهرهـا الدينية والعرقيـة والقومية، حينئذ يتـم قبول الآخر شرعاً وليس فقط التسامح معه، ويتم الاعتراف به وجودياً وليـس فقـط التسامح معه إنسانيـاً. ويكون العيش المشتـرك إذا ما تساوى جميـع المواطنين في الحقوق والواجبـات دون تمييز في الوظائف السياسية أو الاجتماعيـة أو العلميـة. لا يكفي الحكم الائتلافي بيـن الطوائف كما هو الحـال في لبنان، رئيس دولـة ماروني، ورئيس وزراء سُنّـي، ورئيس برلمان شيعي. فهذا تأكيد للطائفية والتوزيع العادل للمناصب السياسية بينها، ينجح أحياناً؛ ولكنه سرعان ما يتفجر الموقف، وقد يصل إلى حد الحروب الأهلية.

الدعـوة للتسامـح دعـوة شائعة وليسـت جديدة، طالما قـام بها زعماء الطوائـف أمـام أجهزة الإعـلام، وكأن القبـلات المتبادلة بينهمـا والكلام الطيـب الذي يلقيه كل طرف على مسامع الطـرف الآخر يكفي لحل قضايا الخـلاف بين الطوائف. التسامح ليس مجرد دعـوة «ظاهرية» والباطن باق كمـا هـو لا يتغير، التسامح هو التسامح الفعلي وليس القولي: تغيير الأوضاع الاجتماعيـة، وإلغاء كافة الفروق بين الطوائف منذ التعليم العام حتى الحق في بناء دور العبادة.

أمـا «التفاهم» فهو أكثر عمقاً مـن التسامح، وأكثر وعياً نظرياً منه؛ إذ يتوجه نحو الظروف الاجتماعية التي تعيشها كل الطوائف، ومعرفة الأسباب التي تؤدي إلى العنف الطائفي أو العرقي. المدخل هو الفهم، وهو الطريق إلى التفاهـم؛ أي الفهم المشتـرك، والتفاهم مدخل معرفي لفهم أسباب العنف الاجتماعي قبل المناداة بالتسامح مع الآخرين، والعقل يسبق الفعل، والنظر

مقدم على العمل. التفاهم مدخل علمي للصراع الطائفي يقوم على التحليل الموضوعـي لأسبابـه كما يفعـل علماء الاجتمـاع، وليس الخطّـاب والوعاظ والمبشرون ورجال الدين في موضوع التسامح. التفاهم نداء العقل والمعرفة في مقابل أن التسامح نداء القلب والعاطفة. التفاهم اعتراف وجودي بالآخر، ثـم محاولـة فهم وضعه قبـل التفاهم معه. التفاهم تسليـم بالاختلاف قبل التبشيـر بالوحدة، واعتراف بحق الاختلاف قبـل محاولة التقليل من شأنه، يقـوم التفاهـم على الاعتـراف بالخصوصيات قبل محاولة إيجـاد العناصر المشتركـة بينها فـي نظام كلي عـام، وإذا كان الظـرف الاجتماعي يفرّق، فـإن التفاهـم العقلي يوحّد. التفاهـم لا ينفي الآخر بل يثبتـه؛ إذ يستدعي التفاهم وجود طرفين يحدث التفاهم بينهما، في حين أن التسامح دعوة إلى قبول الآخر اجتماعياً وإن كان نفسياً وعقلياً ما زال موضع نفي ورفض. في التفاهم لا يوجد ظاهر وباطن: ظاهر يدعو إلى التسامح، وباطن يبقي على الخلاف. التفاهم خطاب واحد لا ازدواج ولا مناورة فيه.

التسامـح في اللغـات الأجنبية، فـي الإنجليزية والفرنسيـة، لفظ واحد Tolerance، فـي حيـن أن التفاهـم فـي الإنجليزية لفظـان Understanding و Comprehension. والأول أكثـر شيوعـاً، ويضـاف إليـه عـادة لفظ متبادل mutual فـي التفاهـم المتبـادل Mutual understanding أو لفـظ مشتـرك common فـي التفاهم المشتـرك Common understanding، وهذا يدل على أن التفاهم أكثر تشابكاً وعمقاً من التسامح، ويتضمن أبعاداً متعددة.

يعني التفاهم الاستعداد للفهم وللقبول دون الرفض المبدئي، والاستعداد لتغييـر المواقـف وليس فقط لتحسينهـا أو لطلائها. يتـم التفاهم أولاً مع النفس من أجل إنقاذ النفس الصافية أو الخالصة من الأهواء والانفعالات والمصالح الوقتية ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وفي

صفـاء النفـس يتجلـى الآخر، حينئذٍ يتـم الحوار معه، وهو مـا سماه بول ريكيـر «الأنـا باعتبـاره آخـر» Le soi comme un autre، والأنا والآخر هنا متساويـان من حيث المبـدأ، وإثبات الأنا هو إثبـات للآخر، وإثبات الآخر هو إثبات للأنا.

ويتم التفاهم ثانياً مع التاريخ باعتباره تراكماً نفسياً، موروثاً ثقافياً عبر العصـور يجثم على الصـدر، يحدد الرؤى، ويضع معايير السلوك، فالشعوب التـي ما زالـت مرتبطة بماضيهـا ولم تنفصل معه، وقـد يصبح هذا الإرث الماضـي بالنسبة لها مانعاً من التفاهم؛ فالذاكرة تنسى، وتختار ما تتذكر، فـإذا كان الواقـع طيبـاً لا تستدعي الذاكـرة من الماضي لحظـات التفاهم والعيش المشترك، وبما أن الواقع حزين فإن الذاكرة لا تستدعي إلا لحظات الصراع الطائفي؛ لتبرير ما يحدث في الحاضر، وكأن التعايش في الأندلس بين الطوائف لم يكن موجوداً، يمثل أزهى عصر من عصور تبادل الثقافات وحـوار الحضـارات والعيـش المشترك بيـن الطوائف، كما وقـع في «ميثاق المدينـة» سابقاً منذ نشأة الإسلام، عندمـا كانت كل طائفة أُمة تعيش بين مجمـوع من الأمـم في أُمة واحدة تعترف بحق الاختـلاف، تعدد في وحدة، ووحدة في تعدد.

وهـو ثالثـاً تفاهـم مـع الحاضـر والاعتـراف بمكوناتـه دون مواجهته بدعـاوى أيديولوجيـة مسبقة. والواقـع تراكم تاريخي، إيجابـاً وسلباً، وهو حيـاة الناس ومعاشهـم وخبراتهم اليومية، أحزانهـم وأفراحهم، ويقتضي التفاهـم مع الحاضر الاعتراف بالأمـر الواقع والتسليم به من أجل تغييره إلـى واقـع أفضل. هنـا لا يصبح المفهوم غطـاء للواقع؛ بـل كشفاً له. لا يصبـح ستـاراً له؛ بـل تعرية له. والاعتـراف بالحق فضيلـة، وإذا اقتصر التسامـح على التخفيف مـن حدة الصراع الطائفـي والعرقي والقومي في

الحاضـر فإن التفاهم يبغي التقدم نحـو المستقبل، ويحدد رؤية مستقبلية للتعايـش المشترك بين الطوائـف والجماعات المختلفة، هدف التفاهم هو تحريك الواقع في مسار تاريخي نحو هدف مشترك، وهو التعايش السلمي بين البشر بما يحقق مصالح الجميع.

التفاهم ضد الانغلاق على الذات والتشبث بالمواقف القطعية المسبقة: دينيـة أو سياسيـة، دجماطيقيـة أو أيديولوجيـة، التفاهـم عود إلـى العقل الصريـح وإلى البراءة الأصلية التي طالما تحـدث عنها الفلاسفة، يستعمل لغـة العقـل وأسلـوب الحوار، وقد رجـع أحد أصحاب علـيّ بثلاثة آلاف من خصومـه بعد حوار معهم. وفي القـرآن الكريم قصة من لديه تسع وتسعون نعجـة ولأخيـه نعجة، وبطلب أخيـه هنا يتحرك العقل البدهـي، والله يسمع حوار امرأة مع النبي ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، ويعتمـد الحوار على البداهة والعقل السليـم: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، وكثـرة المال والبشر ليست مقياساً للحق:﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾، فالإيمـان بدهـي، والكفر عماء. التفاهـم يقر بالاختلاف ويسعى إلى الوحدة، ويقر بأوضاع البشر، ومع ذلك يسعى إلى توجيههم نحو هدف مشترك واحد.

والسـؤال سـواء في التسامح أو فـي التفاهم هو: تسامـح أو تفاهم مع مـن؟ وحـول ماذا؟ وبأي طريقة؟ لا يكفي فـي كلا المفهومين نقل معلومات معروفـة سابقة سـواء من الموروث الإسلامي القديم عـن مدى الحوار بين الفـرق الإسلامية، بل والحوار بين المتكلميـن والخلفاء في دواوينهم، فهذا عصـر قـد ولّى، نسترجعـه لنفخر به ونبكي على ضياعـه، أو ننتقي منه ما يثبـت اضطهاد المفكريـن والصوفية، والأمثلة كثيرة منـذ الجعد بن درهم

والحـلَّاج وابن رشد مـن القدماء وسيد قطب وشهدى عطية من المحدثين، فالموروث القديم به التسامح والتعصب، التفاهم وعدم التفاهم.

ولا يكفـي أيضـاً أن نعيد مـادة معروفة من الوافد الغربـي أو الشرقي. والغالـب هو الغربـي لقربه جغرافياً من الوطن العربـي، واتصالنا معه منذ أكثـر من مائتي عام ترجمة وجلباً لنمـاذج تنموية وسياسية وثقافية، ننتقي أيضـاً مـا نشاء. فـإذا كنا مواليـن للغرب انتقينـا نماذج الحـوار والتفاهم والحرية الفكرية وقبول الآخر سواء في الواقع الغربي أو عند مفكري الغرب مثل مارتن بوبر في «الحياة حوار» وإيمانويل ليفيناس وجابريل مارسل، وإذا كنـا معاديـن له انتقينا نمـاذج الصراع الديني في الغـرب وما أكثرها منذ عصر آباء الكنيسة؛ مثل آريوس والآريوسيين الذين ربما أشار الرسول إليهم فـي رسالتـه إلى هرقل «**وعليـك إثـم الأريسيين**»، مـروراً بالعصر الوسيط أبيـلار العقلاني وسيجر البرابنتي الرشدي حتى العصور الحديثة، اسبينوزا والمفكرون الأحرار والهيجليون الشبان.

إنما تكون المادة العلمية من الواقع العربي الإسلامي، والعلاقة بين التيارات الفكرية المختلفة، خصام أم تفاهم، مثل العلاقة بين السلفيين والعلمانيين، بين الأصوليين والحدثيين، أو العلاقة بين المفكرين، بصرف النظر عن اتجاهاتهم إسلاميين أو علمانيين، والنظم السياسية حتى تصبح منابر التسامح أو التفاهم، مؤثـرة فـي الواقع، وفعَّالة في حياة الناس، ومرحلة من مراحل التاريخ التي يتم فيها التحول من التعصب إلى التسامح، ومن الخصام إلى التفاهم، ومن الفرقة الناجيـة ووجود الصواب في رأي واحد إلى تعدد الفرق واختلاف العلماء وتعدد وجهات النظر: «**للمخطئ أجر وللمصيب أجران**».

فالسـؤال الأول: التفاهـم مـع من؟ التفاهـم مع الداخـل، والتفاهم مع الخارج: التفاهم مع الداخل أي مع كل التيارات الفكرية والمذاهب السياسية

الموجودة في الثقافة الوطنية: الحركة الإسلامية والحركة العلمانية؛ الحركة الإسلامية حركة شرعية لها أصولها في الكتاب والسُّنَّة، ورصيدها في التاريخ، تعتمد على إرثها الشعبي وموروثها الثقافي، وهو ما يفسر انتشارها في الوطن العربي والعالم الإسلامي. الحركة الإسلامية تعرف كيف تقول؟ تستعمل الكتاب والسُّنَّة وتنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية، والناس ضاقت بظلم القوانين المتبعة والنظم الظالمة، وترى في الشريعة الإسلامية الحق والعدل والإنصاف، وفي الوقت نفسه لا تعرف الحركة الإسلامية ماذا تقول؟ تكثر من التركيز على الشعائر والمظاهر الخارجية والعبادات، فهو الطريق السهل للإيمان، أكثر من التركيز على المضمون وما يحتاجه الناس أيضاً، نخبة وعامة، الحرية والعدالة والمساواة.

الدعوة للتسامح دعوة شائعة وليست جديدة، طالما قام بها زعماء الطوائف أمام أجهزة الإعلام

ويكون الحوار مع الحركة العلمانية التي تمثل النخبة، اشتراكية أم ليبرالية أم قومية، فقد سادت الليبرالية الوطنية قبل الثورات العربية الأخيرة، ثم تبعتها الاشتراكية القومية، والآن تعود الليبرالية «الكومبرادورية» التي ترتبط بالرأسمالية العالمية أكثر من ارتباطها بالليبرالية الوطنية، فالحركة العلمانية تعرف ماذا تقول: الحرية والديموقراطية والتعددية السياسية والعدالة الاجتماعية؛ ولكنها لا تعرف كيف تقول؟ تلجأ إلى الأيديولوجيات الغربية: الليبرالية والاشتراكية والقومية. مهمة التفاهم إذن هي خلق تيار ثالث يعرف ماذا يقول كالحركة العلمانية وكيف يقول كالحركة الإسلامية.

والتفاهم ثانياً مع الخارج: مع الغرب والشرق على حد سواء بدلاً من التفاهم مع الغرب وحده، بعد أن أصبحت ثقافته ونماذجه هي الغالبة.

بيننـا وبيـن الغرب الآن سوء تفاهم قد يصل إلـى حد الخصام أو القطيعة أو حتى العداء والعدوان، وسبب ذلك الصور النمطية التي نسجها كل طرف عـن الآخر بفعـل الاستشراق والتبشير والاستعمـار والاستعلاء الثقافي؛ فقد ربى الغرب لديه عقدة عظمة تجاه الآخرين، وربينا نحن لدى أنفسنا عقدة نقـص تجاه الغرب. والعلاقة بينه وبيننا علاقـة المركز بالأطراف؛ المركز يبـدع، والأطراف تنقـل وتترجم وتشـرح وتلخص وتجتر مـا يقوله المركز، تتأسـى بثقافته، وتتبنـى نماذجه. وأخرج الغرب مقولات فـي الأنثروبولوجيا مثـل العقل المنطقي الاستدلالي لديه في مقابـل العقل السحري الأسطوري عنـد غيـره، التقدم لديه في مقابل التخلف عند غيـره. وكانت النازية أحد أشـكال ثقافتـه، والإمبراطوريـة الرومانيـة متأصلة في وجدانـه، والاختيار اليهـودي فـي لا وعيه، مع العلم بـأن الحضارات دورات تبـدأ وتتطور وتبلغ الـذروة ثـم تنهار، كما حـدث لحضارات الشرق القديم فـي الصين والهند وبابـل وآشور وكنعان ومصـر القديمة واليونان والرومـان، وربما يكون ذلك مصيـر الغـرب الحديث الذي بـدأ عصـوره الحديثة منذ أكثـر من خمسة قـرون، وبـدأت الآن مظاهـر التصدع والانهيـار فيه في كثير مـن الأدبيات مثـل «أفول الغرب» لاشبنجلر، و«تحطيم العقـل» للوكاتش، و«فلسفة الأشكال الرمزيـة» لكاسيـرر، و«أزمة العلوم الأوروبية» لهوسـرل، وقد زاد سوء الفهم بيننـا وبينهم في العقود الأخيرة، وتم الربط لديهم بين الإسلام والإرهاب. وبدأ الخوف من الإسلام أو «الإسلاموفوبيا» في الانتشار، مع أن الإسلام هو الذي بنى حضارة الأندلس، وأسس العلوم الرياضية والطبيعية التي تُرجمت إلـى اللاتينية، وأصبحت أحد مصادر النهضة الأوروبية الحديثة. وقد يكون انتشار الإسلام في أوروبا ـ عن طريق المهاجرين العرب والمسلمين وتحول الأوروبييـن إلى الإسلام ـ ظاهـرة إيجابية بعد أن أصبح الإسلام هو الدين الثاني في أوروبا بعد المسيحية. فالغرب في حاجة إلى دم جديد يعينه على

حل أزماته، ويساعده على البداية في دورة حضارية ثانية، وقد يكون الإسلام هو ذلك الدم الجديد كما حدث ذلك من قبل في العصور الحديثة في الغرب، فالنهاية عود إلى البداية. الإسلام ليس ثقافة غريبة على أوروبا؛ بل هو جزء من مكوناتها، وأوروبا ليست ثقافة غريبة على الإسلام بل هي جزء من مكوناته منذ الترجمة عن اليونان في أول نشأة الحضارة الإسلامية حتى عصر الترجمة الثاني منذ مائتي عام عند الطهطاوي ورفاقه، حتى مشاريع الترجمة في شتى أرجاء الوطن العربي منذ عقد من الزمان.

والتفاهم الثاني مع الشرق وحضارات الشرق، خاصة وأن الإسلام عندما انتشر أولاً زحف شرقاً حتى أواسط آسيا في عهد الخليفة الرابع، وهناك الوافد الشرقي الفارسي والهندي في ثقافتنا القديمة التي مثلها مسكويه في «الحكمة الخالدة» والبيروني في «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وقد حاول ابن سينا الجمع بين الحكمتين الشرقية والغربية في فلسفته الإشراقية وفي «منطق المشرقيين». والحوار مع الشرق الآن ضرورة نظراً لنهوض الشرق: الصين، اليابان، كوريا، وتوجه مسار الحضارات نحو ريح الشرق كما يقول أنور عبد الملك في «ريح الشرق» وجوزيف نيدهام في «العلم والمدنية في الصين»، ونحن ما زلنا متوجهين نحو الغرب في دفاعنا وتنميتنا ونماذجنا وثقافتنا، وقد يكون التفاهم ميسوراً مع الشرق أكثر من الغرب، فالكونفوشوسية أقرب إلى تعاليم الإسلام الخلقية، وربما كان كونفوشيوس نبياً مرسلاً إلى الصين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ إذ لم يقص القرآن إلا أنبياء بني إسرائيل المعروفين في شبه الجزيرة العربية ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾، وقد تكون البوذية قريبة من روح الإسلام فيما يتعلق بالزهد والسيطرة على أهواء النفس، لدرجة اعتبار بعض العلماء أن التصوف الإسلامي ذو مصدر هندي. لا يكفي التعامل مع الصين والهند وكوريا اقتصادياً وربما عسكرياً؛ بل يجب أن يمتد

التفاهـم إلى الثقافـة والأخلاق والقيم، وليس فقط المصالح المتبادلة، بعد أن أصبحـت الصين المستثمر الأول في أفريقيا، والشرق أقرب إلى الخليج من الغرب. والجناح الشرقي للوطن العربي أكثر امتداداً في الشرق منه في الغرب.

وكما أن التفاهم يقع مع الشرق قدر وقوعه مع الغرب فإنه يتم أيضاً مع الجنـوب مثلمـا يتم مع الشمال، وأفريقيا هي أغنـى قارات العالم من حيث المـوارد الطبيعية، والجناح الغربي للوطن العربي في شمال أفريقيا، والنيل أطـول أنهار العالم يعبر مصـر والسودان، وقد انتشـر الإسلام في أفريقيا سلماً وهو في أضعف لحظاته عن طريق الطرق الصوفية، وكما أن الإسلام دين له حضوره في آسيا هو أيضاً دين له حضوره في أفريقيا.

والسـؤال الثانـي: حـوار حول ماذا؟ ليـس حول مسائـل نظرية خالصة بالرغـم مـن أهمية الطـرح النظـري، وإلا كان التفاهم غيـر ذي مضمون، وإنمـا ينبغي أن يكـون موضوع الحوار الواقع الحالـي للوطن العربي والعالم الإسلامـي وتحدياته الرئيسة: تحرير الأراضي المحتلة في فلسطين والعراق وأفغانستان، حرية المواطن وتحرره من صنوف القهر الاجتماعي والسياسي والثقافـي، العدالة الاجتماعية ضد التفاوت الشديـد بين الأغنياء والفقراء، وحـدة الأمة ضد مخاطر التجزئة والتفتيت العرقي والطائفي كما هو حادث حاليـاً فـي العراق والسـودان والصومـال واليمن وربما المغـرب العربي في الطريـق، التنميـة المستقلة والاكتفـاء الذاتي حتى لا يعتمـد الوطن العربي والعالـم الإسلامي على الاستيراد من الخارج كما هو حادث الآن في الغذاء والسلاح، الدفاع عن الهوية ضد مخاطر التغريب في الحياة الخاصة والعامة فـي اللغة والعادات واللباس والبنـاء والتعليم والرؤية، وأخيـراً حشد الناس وتجميع قوى الأمة وطاقاتها في الداخل والخارج.

لا يتـم التفاهم فقط بين طرفين أو ثقافتين؛ بل يتم أيضاً بين الثقافة وواقعهـا، بين الناس ومحيطهم، فالعالم طرف ثان للتفاهم، العالم المحلي والعالم العالمي، لذلك فمن موضوعات التفاهم أيضاً على الصعيد العالمي: نظـام العالـم الجديد، العولمـة، العالم ذو القطب الواحـد، أزمة الاقتصاد العالمي، نظم المعلومات الجديدة، مجتمع المعرفة.

وما يهم في موضوعات التفاهم هو من يضع جدول الأعمال؟ هناك جدول أعمال غربي معد للحوار، يعبر عن اهتمامات الغرب مثل: المرأة، الأقليات، حقـوق الإنسان، التعددية، الديموقراطية، العولمـة، صراع الحضارات، وهي موضوعـات تعبر عن أولويات الغرب وضعف الطرف الآخر في الحوار نظراً للأزمة التي لديه في هذه الموضوعات. ما يهمنا هو جدول أعمال أيضاً يعبّر عـن علاقتنا بالغرب عبر العصور: السيطـرة، الهيمنة، التسلط، الاستعمار، الاستعـلاء، عقدة العظمة، المصادر الشرقية للوعي الأوروبي، مصير الوعي الأوروبـي، تفاعـل الحضـارات، المركز والأطـراف، النقل والإبـداع، دورات التاريخ، وهو جدول أعمال مشترك للتفاهم لا يضعه الطرف الأقوى، ويقبله الطرف الأضعف دون مراجعة أو جدول بديل.

والسـؤال الثالـث: بـأي طريقة وتحـت أي شـروط يتم التفاهـم؟ ليس التفاهـم عمليـة ساكنة، بين طرفيـن جامدين؛ بل هو عمليـة متحركة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فكل طرف من طرفي التفاهم خاضع لمناهج التربيـة التي تربى عليها، والصور النمطيـة التي أعطيت له عن نفسه وعن الآخـر. ففـي مصر مثـلاً يُفصل الأقباط عـن المسلمين فـي دروس الدين فـي المـدارس، يُعطى القبطي مبـادئ المسيحية كما يُعطـى المسلم مبادئ الإسـلام، وهو ما يبـث في الوعي الفرقـة والاختلاف ويضحـي بالمواطنة، ويمكن ضم المسلمين والأقباط في درس واحد عن القيم الدينية المشتركة

بين الدينين مثل المحبة والتقوى والإيمان، والأخوة والتعاون، فالأخلاق جوهر الديـن، وما زال المسلـم يتربى على أن الطرف الآخر المسيحي، مشرك أو كافـر، يقول بتعدد الآلهة وبالصلب وهو ما يخالـف العقائد الإسلامية. وما زال المسيحـي يتعلم منذ صباه أن الإسلام فرقة مسيحية يهودية نشأت في شبـه الجزيرة العربية، وأن الرسول محمداً ﷺ لم يتلق وحياً من عند الله، وتصوراته مأخوذة عـن اليهودية والمسيحية وهي الفرق التي كانت موجودة فـي عصـره، فإذا ما شـب التلميذ المسيحـي وأصبح طالبـاً تستمر الصور النمطية في تكوينه الثقافي من خلال الإعلام ودراسات المستشرقين وعلماء الاجتمـاع والأنثروبولوجيا عن عنف الآخر وتصلبـه ورفضه للحوار، وتمسكه بهويتـه المخالفـة للهويـة العامة في الحجـاب والنقاب والمـآذن، ويكون رد الفعـل الصور الدانماركية والروايـات القادحة والمقالات الجارحة عن حياة الرسـول. يحتـاج التفاهـم إذن ـ كي يبدأ بداية صحيحـة ـ إلى التخلي عن الأحكام المسبقة.

ومـن طرفنـا ـ نحن المسلميـن ـ يتعلم التلاميذ في المـدارس ويتلقون دروسا عن كفر الآخر وشركه، وعندما يشب يتعلم أن حضارة الغرب حضارة ماديـة علمانية إلحاديـة عدمية انحلاليـة، فيعاديها بناء علـى هذه الصور النمطيـة، ولا يعرف عقلانيتهـا وإعلانها مواثيق حقـوق الإنسان والمواطن، واحترامهـا قيم الحريـة والديموقراطية، والمساواة فـي الحقوق والواجبات بيـن جميع المواطنيـن، والالتزام بالقانون والدستـور، ويضع الغرب كله في سلة واحدة دون تمييز بين الغرب الاستعماري والغرب المناهض للاستعمار، الذي يقف في صف الشعوب وحركات الاستقلال.

والتفاهـم ليس نهاية المطاف؛ بل هو وسيلـة للعيش المشترك والتعاون علـى تحقيق ما تحتاجـه الشعوب وتتطلع إليه من حريـة وعدالة لدينا ومن

قيم جديدة في الغرب، وهو وسيلة إلى الوصول إلى كلمة سواء بين طرفين ومقياس الحقائق بمعيار واحد بدلاً عن ازدواجية المعايير والمساواة بين الناس﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولا يتم التفاهم إلا في إطار مشروع قومي نهضوي عام بحيث يكون التفاهم مع الأطراف الأخرى أحد مقوماته، فالتفاهم ليس مجرد أداء واجب، وعادة ما تتم الدعوة إليه من الطرف الآخر وبتمويله وعلى أراضيه، وكي يصبح التفاهم أمراً جاداً فإنه يكون معبراً عن نهضة طرف يحاول إزالة معوقات تقدمه من سوء الفهم لنهضته لدى الآخر، حتى يتم التعاون بين الطرفين. وإن لم يستطع التفاهم تحقيق شيء إيجابي فإنه يستطيع ذلك سلباً عن طريق منع الظلم بين الناس والتكبر والاستعلاء وإنكار الآخر أو الإقلال من شأنه.

هذا تحليل وصفي ظاهراتي (فينومينولوجي) لمفهومَيْ التسامح والتفاهم لمعرفة أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، يتعرض للمفهوم النظري وتطبيقاته العملية في الواقع العربي والإسلامي المعاصر، يعتمد على البداهة وعلى التجارب المشتركة، لا فرق بين الثقافة والسياسة إذا ما كان التحليل للثقافة الوطنية والموروث أو الوافد الثقافي وأثرهما في حياة الناس اليومية لا يتخفى وراء العلم المنقول، ولا يتستر خلف التحليلات النظرية الخالصة. فالعلم كشف، والمعرفة بيان، قد تكون هناك تحليلات أخرى ممكنة؛ ولكن تطابق التحليل مع خبرات أكبر عدد ممكن من الناس هو الضامن الأول للموضوعية، وليس فقط تطابق التحليل مع الواقع المعاش.